

## في طريق المدينة\*

للأستاذ علي الطنطاوي

أفاق سحراً — ولا يسدو السحر على أعمه إلا في البادية ،  
فلا ليل في الجلال كليلها ، ولا صبح في الجمال كصبجها ، ولا  
نهار في الشدة كنهارها — فجلس ينظر الى هذه الصحراء التي  
تمتد من حوله ؛ يذيب أولها في يياض الفجر المقبل ، وآخرها  
في سواد الليل المدبر ، وهي ساكنة سكون الموت ، واسعة سعة  
السماء ، فأحس في نفسه بشيء لم يحس به قط ؛ فقال : لا إله  
إلا الله ! فخرجت من أعماق قلبه . . . وأى امرئ تلقية الأيام  
في البادية ، فيرى ليلها ونهارها ، وشمسها ورمالها ، ثم لا يكون  
أشد الناس بالله إيماناً ، وعليه اتكالا ؟ وهو يرى أبدأ من جلال  
المخلوق ما يخشع منه قلبه لجلال الخالق ؛ وهو يعلم أنه ليس بينه  
وبين أن يموت عطشاً ، أو يهلك جوعاً ، إلا أن يجيد عن طريقه  
ذراعاً ، أو ينحرف عن وجهته شبراً . . . وكيف يكفر بالذي  
لا يرجو النجاة إلا منه ، ولا قوة إلا به ، وليس له من يدعو  
إلا إياه ؟

وكانت تلك صبيحة اليوم السابع عشر من أيام البادية ،  
فطفق يذكر هذه الأيام ، وينظر ما أناده فيها ، فإذا هو قد عرف  
من خبر العرب ، في سبعة عشر يوماً ، ما لم يعرفه في سبع عشرة  
سنة ، يقرأ فيها أسفار العرب ، ويتلو أشعار العرب ، ويدرس  
لغة العرب ، وتاريخ العرب ، وإذا هو قد سافر ألفاً وثلاثمائة سنة  
في الزمان ، لا ألفاً وثلاثمائة كيل على الأرض ؛ وسلك الطريق  
التي سلكها الغزاة الأولون ، فلم أن سر قوة العربي الأول  
الذي عمل ما لم تعمله الجن ، ولا تقوى عليه المرادة ، حتى يبي  
للحضارة هذا الصرح العظيم ، فأوتاليه ، وتفتيات ظلاله ، وإن  
سر عجز العربي الأخير ، حتى نام عن هذا الصرح ، وأباح المدو  
حمام ، إنما هو ( بعد الاسلام ) هذه الصحراء

هذه الصحراء الذي لا يعيش فيها الجبان الماجز ، لأن  
الحياة فيها دين عيني الأسد ، لا ينالها إلا شجاع مقدم ، أخو

\* أنظر مغالاة ( في طريق المدينة ) في العدد ٩٧ من الرسالة

غمرات ، صبار على النكبات ، ضحك في اللثات ، وإلا ابن  
الشمس ، صديق الرمال ؛ حليف الجوع والمعش ، ذو إرادة  
لا تنثنى ، وهمة لا تطاول ، وعزيمة لا تنفل

ولا يعيش فيها المريض ، لأنها لم تخلق مستشفى للمرضى ،  
ولسكنها خلقت ميداناً للأبطال ، وأنى يأتي البدوي المرض ،  
مادام لا يؤتى من قبل معدته ( والمعدة بيت الداء ) ، ومادام كل  
طعامه التمر والسمن واللحم والأقط ، وكل شرابه اللبن والماء ،  
فإذا مرض يشرب قارورة من شمع الشمس ، وشمس الصحراء  
أنفع من مجموع صيدليات باريز ؛ فإذا لم يجده نفعاً ، أجدها الكي ،  
وما بعد الكي إلا حياة كاملة أو موت كامل ، هو خير على كل  
حال من حياة ناقصة . . . وقد دعا قالوا آخر الطب الكي !

ولا يعيش فيها الفقير ، لأن أهلها كلهم أغنياء . . . وهل  
الغنى إلا أن تنال كل ما تطلب ؟ وهل يطلب البدوي إلا ماء له  
وكلاً لمواشيه ؟ فإذا أحلت الدار أم غيرها :  
وفي الأرض منأى للكريم عن الأذى

وفيها لمن خاف القلب متحول  
ولا يعيش فيها المنافق التملق الخداع ، الذي يلبس جلد  
الجل على جلد الذئب . . . لأن الصحراء منبسطة مستوية  
متكشفة ، ظاهرها كباطنها ، وليس فيها سقوف ولا جدران ،  
ولا منارات ولا سراديب ، وكذلك نفس العربي ماني قلبه على  
لسانه ؛ فان تاداك فعداوة الشريف ، يستقبلك بالشر ولا  
يستدبرك به ؛ ويحمل إليك الموت على شفرة السيف ، لا  
يقدمه في كأس من الذهب ، قد خلط فيها السم بالدم ؛ وإن  
صاقل أخاك ، فأخوة الشريف يفديك بنفسه وماله ، ولا يرغب  
عنك حتى ترغب عنه ، وإذا أنت أنكرت من العرب جفاء  
في الطبع ، أو خشونة في المقال ، فان تنكر منهم عووض تلوننا  
ولا تعلقاً ، ولا تنكر منهم لين الحية ولا لطف المستمر . . . على  
أن الجفاء ليس من شأن العرب ، ولا هو في جميعهم ، وإن فهم  
للطف ، وإن فهم لظرفاً ، وإن لهم لأحلاما . . .

\*\*\*

وطفق يذكر كيف كان يتبرم بهذه الأشعار التي تندب الديار  
وتبكي الأطلال ، ويستثقلها ويراه كائنها الذي فيها جمال وليس

وقفت فيها امرأة اليوم أسألهما عن آل نعم أمونا غير أسفار  
فاستعجمت دار نعم ما تكلمنا والدار لو كلكنا ذات اختيار  
فما وجدت بها شيئا ألوذ به إلا التمام وإلا موقد النار  
وتعدو به السيارة عدو الظلم ، وهو لا يرحم عما حوله ، يتمثل  
الشاعر وقد عمّ الديار ، فلم يجد بها سائلا ولا مجيئا :

ناديت : أين أحييتي ؟ فأجبت : أين أحييتي ؟  
فبرّح به الشوق ، واشتملت في صدره النار ، وكواه الحجر ،  
فذهب يذكر نعمًا ، وقد كان يسارها حتى ينأى بها عن الحى ،  
ثم يجلسان حتى تغيب الشمس ، ويلفهما الظلام برداء الأمن من  
الرقباء ، ويسبغ عليهما نعمة الحب ، فلا يكون بينهما إلا كل  
خير : بينها حبه ، فتشكوه حيتها ، ويكشف لها عن قلبه ،  
فتكشف له عن قلبها ، ولا يخفى عنها شيئًا ، ولا تكتمه شيئًا :  
وقد أراني ونمالي لا هيين بها والدهم والعيش لم يهيم بأمرار  
أيام تخبرني نعم ، وأخبرها  
ما أكرم الناس من حاجي وأمرادي

\*\*\*

وجعل يذكر كيف فهم في تلك الساعة قصيدة النابغة ،  
ونفذ إلى روحها ، وقد كان يتلوها ، ويدرسها ، ويشرحها ،  
فلا يفهم منها إلا كلماتها وجلها ، وعروضها وإعرابها ؛ وجعل  
يذكر ما حفظ من أشعار الديار ، فيصير فيه جمالاً لم يصره من  
قبل ، فيعلم أنه قد كان منه في ليل مظلم ، لا يرى فيه إلا سواداً  
فطلعت تلك الساعة بدرًا ، أراه أن وراء الظلام دنيا واسعة ،  
وفتنة وجمالًا ، وروضة وأنهارًا ...

وجعل يذكر كيف كان يقرأ أمثال العرب فلا يفهم من  
قولهم : ( أن ترد الماء بماء أكيس ) إلا أن ذلك أحزم ، فلما  
خرجوا من القاع وأقبلوا على ماء الهزيم الذي طالما وصفوه لهم  
وحببوه اليهم ، وجده بثرًا متنتة خبيثة ، تقتل من يشمها ،  
فكيف بمن يشرب منها ؟ فلم أن معنى أكيس : أمك لا تشرب  
ماء خبيثًا فتمرض !

فلما وردوا ماء الفجر ، بمد مسيرة يومين في الشيب لم تسر  
السيارة فيهما : كيلين متتابعين على أرض كالأرض ، ولكنها كانت

فيها روح ؛ فلما كانت أول ليلة قضاها وأصحابه في البادية ، وحط  
الركب في قاع الدغيلة<sup>(١)</sup> فوقفت السيارات الخمس ، ووضعت  
الأحمال ، ونصبت الخيام ، وأوقدت النيران ، ورفعت القدور ،  
وبسطت البسط ، ومدت الفرش ، وكل المجلس حتى قام المذيع  
(الراديو) يجمعهم بين الشيخ والقيصوم ، أغاني عبد الوهاب  
وأم كلثوم

ف... باتوا بأنهم ليلة حتى بدا صبح تلوح كالأعصر الأشقر  
فتنادى منادى الرحيل ؛ فما هي حتى طويت الخيام ، ولتت  
البسط ، وشدت الأحمال ، فآذا كل شيء كأنه حلم ، أو كأنه  
صفحة طويت ، ولم يبق إلا الدوى المهلم ، وإلا موقد النار ،  
فامتلاّت نفسه حزنًا ، وانطلق لسانه يترجم عن أسدق عاطفة ،  
وأعمق شعور ، بكلمة النابغة التي استتقلها ، وعدّها من القول  
المعاد ، والكلام الفارغ :

عوجوا خيرا نعم دمنة الدار ...

وانطلق يقف اخوانه لحظة ، يجيئ فيها هذه البقعة التي  
ترك فيها ليلة من حياته ، وطائفة من ذكرياته ، وقطعة من نفسه ؛  
ثم عاد فسخر منهم كيف يقفون على أحجار قد سودتها النار ،  
وحفرة حفروها من حول الخيمة خشية الأمطار .  
ماذا تحيون من قوى وأحجار ؟

ويجد القاع بعد أن تقوّضت الخيام ، وطويت البسط ،  
وضاع السكان القى سواه لنومه ، وأعدّه لجلسه  
أفوى وأقفر من نعم وغيره هوج الرياح بهاني التراب موار  
ويطول به الوقوف ، وأصحابه يستحثونه ، والسيارات  
(تصرخ) مستعجلة ، فيمشي وهو يفكر في هذا القاع . هل  
يحفظ هذه الذكريات ؟ ويسأل هذا القاع : هل يذكر أبدًا هذه  
الليلة التي قضاها فيه ، والمواطف التي استودعه لإياها ؟ فلا  
يسمع مجيبًا ، ولا يجرد إلا أحجار الموقد ، وإلا هذا التمام  
الضيف اللين ، القى جمعوا منه فأوقدوا به النار ، وأخذوه  
فراشًا ، فينشد قول النابغة :

(١) بعد الأزرق قرب المسدود بين شرق الأردن والمجاز ، وقد  
قضينا فيه ليلة الثلاثاء في ٢ أبريل سنة ١٩٣٥ في رحلتنا إلى الحجاز